الفصل الأول

في إحدى الحارات الشعبية القديمة بدمشق أمضيت فترة الطفولة البريئة فى بيوت قديمة يسكنها أناس طيبون بسطاء. تميزنا في تلك الحارة بأمور كثيرة، كان والدي من وجهاء الحي، يقصده الجميع في حل مشكلاتهم المادية والمعنوية.

مع صغر سني كنت أراه كبيرًا و أفتخر وأمشي في الحارة وكأني ابنة السلطان، هذا في المرحلة الابتدائية، كان والدي يعطيني ملابس جديدة أقوم بتوزيعها في المدرسة على زملائى الفقراء، وهذا ماكان يعطيني إحساسًا غريبًا بأني مختلفة.. أحببت صحبة الفقراء، ربما لأني بطبعي أحب العطاء.. كنا نختلف عن الجيران بأمور كثيرة. نخرج بحرية أكثر. نرتدي أحدث الموديلات وهذا يعود لوالدتي، لأنها كانت تهتم بالمظاهر أكثر من أي شيء، نذهب للمطاعم، نتنزه في أماكن كثيرة. تميزت بالمرحلة الابتدائية لدرجة أن المدرسين كانوا

obeikandl.com

يطلبون مني تحضير الدروس و إعطائها للطلاب لأسلوبي الشائق والمرح و ليس في المدرسة فحسب بل بكل أمور حياتي التي أثارت في وقتها تساؤلات كثيرة بيني وبين نفسي وجسدي وغرائزي، هناك قريب يزورنا في فترات قدومه إلى دمشق حيث كان يعمل في بيروت، وهو أحد أقارب والدي، حين يأتي يحملني بلهفة ويجلسني في حضنه يداعبني برقة تثير فضولي، في ملامحه ما يجعلني أنظر إليه لعلي أفهمه وأجد تفسيرًا لمداعبته، شعره المجعد الأسود مع توشيح بسيط على أطرافه ببعض البياض، عيناه الواسعتان بلونهما الرمادي فيهما لمعة ظاهرة، ربما كانت تخيفني أحيانًا، ابتسامته الجميلة تتغلب على إحساسي بالخوف، تفاصيل وجهه كانت تأخذ حيزًا كبيرًا من تفكيري.

في بعض اللحظات أهرب من حركاته التي لم استطع الاعتياد عليها بالتحول إلى تفاصيل وجهه، أتأمل فمه الصغير وأسنانه البيضاء أنظر إليهم وهو يضحك، **وأقول**:

– أسنانك بيضاء وأنت أسمر اللون لذلك يظهر بياضها واضحا.

يضحك ويعاود حملي، يرفعني إلى أعلى وينزلني وأنا أضحك رغم خوفي أن أقع أرضًا، وبعد كل هذا اللعب يجلسني على حجره ويمسكني بقوة حتى لا أحاول النزول، وأنا أنظر إلى والدتي ووالدي.

لم أكن ألحظ استنكارًا من أحد على حمله لي بهذه الطريقة الحميمية مع أني لست صغيرة للدرجة التى أحمل بها هكذا، ربما يبررون ذلك لسفره فترات طويلة، وذلك الحنين إلى العائلة، حديثه مرح كان يتكلم عن أمور حدثت معه في عمله، والجميع يضحك للطرائف التي يحدثهم عنها، في كل مرة كنت أشعر أن طريقة مداعبته تأخذ وضعًا جديدًا، ينتابني شعور غريب أحاول تجاهله، لا أعرف ماهية هذه المشاعر الممزوجة بأماكن في نفسي وجسدي لم أألفها، ومع تجديد اللقاء يستجد شيء مختلف لمداعبته لي في كل مرة، وأستنكر ما أشعر به بغباء، دون ردة فعل. تكررت زيارته لنا، كان يأتي كل أسبوع مرة، يقضي يوم الأحد عندنا، وفي لقاء لا يزول من ذاكرتي كنا نجلس جميعا نشاهد التلفاز، دون أي حديث ناداني:

– حياة.. حبيبتي أعطني كوب ماء. وفي عينيه ذاك البريق، وحين أحضرت له الماء أخذ كوب الماء وأمسك يدي بقوة، وضع كوب الماء بجانبه وحملني وأجلسني على حضنه وهو يقول:

– أيتها الشقية.. تعالي إلى هنا كم اشتقت إليك.

والدي كان يتابع نشرة الأخبار، والدتي تتحدث مع خالي على الهاتف، وأخوتيَ يحضرنَ العشاء، كنت أرتدي ثوبا قصيرًا أتذكر تماما كيف كان كلما رفعني إليه ارتفع الثوب إلى الأعلى كنت أحاول أن

أغطي ما يظهر من جسدي برفع الثوب، يمسك هو بيدي الصغيرة يقبلها وهو يضحك وكأنه يقول دعي الثوب يرتفع، بتسلل وهدوء تتغلغل أنامله في صدري، بين اللعب والضحك، يمررها ويداعب صدري الصغير الذي لم يكتمل نموه بعد ومع ذلك ينتابني ذاك الشعور، بوقتها لم أكن أعي ما هو، إلا أني كنت أشعر برغبة بالمزيد من هذه المداعبة وأبدو بين يديه شبه نائمة.في كل مرة يفعل ذلك، ولكن ماحدث في المرات التالية جعلني في حيرة وربما أكثر من الحيرة، بعد تلك اللحظات من مداعبته لنهداى الصغيرين، أنامله تسللت إلى داخل ثوبي ولمسني من منطقة محرمة، جعلني أنتفض من مكاني، ولكنه شدني بقوة إليه، وخوفي من والدي أن يقول لي شيئا، فهو يتابع الأخبار باهتمام شديد لدرجة أنه لم ينتبه لتلك الحركات التي تصدر عن قريبه، وتابع لمسه بنفس المكان بحركة بطيئة جعلني أشعر بنعاس لابل أذكر أني كنت أبتسم، لا أعلم لما، ولكني لم أعد أرغب أن أبتعد عنه، شعور غريب، شيء يشبه الدغدغة الناعمة، هي دقائق أشعر فيها بسعادة خفية تنتهي بثوانٍ حين يقول:

– هيا إلى النوم.. يجب أن تذهبي للنوم،

ويذهب ويغسل يديه كنت أشعر بالضيق حين يغسل يديه وأتساءل لما يفعل ذلك؟!!

يناديه والدي لاتذهب للنوم، انتظر العشاء أصبح جاهزًا، نتناول الطعام وكأن شيئًا لم يحدث، ويذهب لغرفته وأنا أيضا أذهب للفراش ومعي ذلك الشعور الجديد الذي استحوذ على تفكيري وجسدي، أشعر بخدران غريب، ذاك الخدران ويبقى ذاك الإحساس محتلًا لجسدي، أبقى على تلك الحالة حتى يستولي علىّ التعب واستسلم للنوم، كنت أترقب قدومه وأخافه، ومع ذلك أنتظر أن يحملني ويعاود لعبه معي، هي مجموعة متناقضات داخلي ولكن رغبتي بذلك الشعور أكبر من خوفي منه. تكرر الموضوع كثيرًا وبنفس الأسلوب..في داخلي شيء غريب تجاه هذا الرجل أنظر إليه، أتأمله، حتى أني أصبحت أشتاق له، وأفرح لقدومه، في إحدى زياراته استغليت دخوله الحمام ليستحم، دخلت غرفته التي ينام فيها وهي غرفة نستقبل بها الضيوف عادة، حقيبته على الأرض، فتحتها وبدأت أنظر في حاجاته لم أكن أعلم لماذا أفعل ذلك هي رغبة مني أن أكون بقربه لاشيء آخر، وجدت كتابًا داخل حقيبته مرسوم عليه صورة فتاة عارية، شعرت بحرارة عالية بجسدي، فتحت الكتاب بدون تفكير من منتصفه وقرأت تلك الصفحة بكلماتها التي رافقتني مشوارًا ليس قصيرًا من حياتي، ((مد يده إليها يداعب شعرها....ينظر إلى جسدها الفتان بشوقٍ، بعطش .... ثم أخذها بين ذراعيه... وبدأ يخلع عنها ملابسها قطعة، قطعة..... ويقبلها بجنون.... ومدت يدها تساعده بخلع ملابسه دون وعي

منها أو شعور...أخذها إلى السرير وهو مازال يداعبها وينهال عليها بالقبل... ويداها تغوص في تضاريس جسده...وصوت آهاتها يعلو...استلقت على السرير ومال فوقها....وراحت أنفاسهما تتعالى....وبقيا في تلك النشوة وقتًا طويلًا بين عناق وقبل ولذة و نشوة)) أغلقت الكتاب، وخرجت من الغرفة واتجهت إلى غرفتي، كان لابد لي من صعود الدرج للوصول لها، غرفة الضيوف كانت أول غرفة بالبيت بينما غرفتي كانت آخر غرفة، لأول مرة أشعر أن غرفتي بعيدة، وأني أبذل مجهودًا لأصل إليها، أو ربما أنا من أردت الوصول بسرعة، أشعر بحاجة أن أستلقي بفراشي للخلوة بنفسي، كمن سرق شيئا ويريد إخفائه قبل أن يراه أحد.

دخلت غرفتي وأغلقت الباب، وارتميت على السرير بشوق ورغبة لعناق تلك الكلمات التي أودعتها داخلي، هي لحظات وبدأت أرددها بصوتٍ متهالك مرتجف، وأناملي تتلمس جسدي في كل منطقة، وكأني أريد التعرف عليه من جديد بأطراف أناملي، وهي ترتجف أمررها على صدري وبدون أي تفكير وكأنها يد خفية، عبرت أناملي تضاريس جسدي وأنا في حالة أشبه بالخدر، هي تلك النشوة التي وصلت إليها، ارتفع صوت أنفاسي، أصبحت أسرع، لم أعد بعدها أدرك ماذا حدث، يبدو أني غفوت وأفقت على صوت والدتي ينادي:

– حياة أين أنت؟

ألم أطلب منك ترتيب البيت، أمركن عجيب، كل واحدة تهتم بأمورها، تلك في المدرسة والثانية عند خالتها وأنت نائمة إلى متى ستدوم هذه الفوضى؟

خرجت من الغرفة مذعورة محاولة التماسك، أمام والدتي التي كنت أحبها وأخاف غضبها، حولت نظري عنها ربما لخوفي أن ترى في عيوني ماكنت أفعل بتلك الغرفة وحدي، تركتها ورائي ورتبت البيت بسرعةٍ لم تعتادها مني، رغم نظرة الاستغراب التي أخافتني للحظات، ولكن تلاشت بعد أن أمسكت سماعة الهاتف وبدأت الحديث مع خالي، نسيت وجودي تمامًا. لا أنكر أني شعرت بضيق في داخلي، لم أكن أعرف مصدره لكن كنت أشعر أني أريد البكاء، حاولت الهروب من التفكير، إلى مراجعة دروسي قبل مجيء والدي، هو من كان يتابع دراستي، ودراسة أختي مهما كان متعبًا، حلمه أن نتم تعليمنا ويرانا في الجامعة، يحب العلم والتعليم وأنا للأسف كنت أول من خيب أمله !

وأما ذلك القريب الذي كان يأتي ويسافر فترات طويلة، وبعودته يكون اللقاء ذاته والمداعبة ذاتها، وتلك النشوة التي تنتهي بغسل يديه.

بعد مرور وقت علمت أنه سيتزوج، رغم الفرق الكبير في العمر، هناك أكثر من خمسة عشر عامًا، ولكن تملكني حزن غريب، استغربت هذا الشعور، رغم صغر سني، كنت أشعر بالخصوصية في تلك العلاقة الغريبة، لا أعلم تسميتها ولكنها تعني لي الكثير من الاهتمام إن لم يكن حبا. ماهو؟؟؟ مؤكد حب وإلا لماذا يهتم بي دون إخوتي، أحببت هذا التميز وعشت فيه أيام طوال بعد زواجه أيقنت أن ماكان منه ليس حبًا كما كنت أشاهد في الأفلام، لم أجد له تسمية.

وعادت الأمور رتيبة ليس فيها إثارة، بعد زواجه أصبح رجل آخر لم أستطع النقمة عليه، كان إنسانًا طيبًا يزورنا بين الفترة والأخرى هو وزوجته بكل حب واحترام حتى نظراته اختلفت، يبدو أن ماكان هو مجرد وهم، وانتهى، بعد ماترك عندي تلك الرغبة بمداعبة تروق لي للحظات وعند انتهائها، أشعر بمقت لروحي واكتئاب شديد، فى وقتها لم أكن أعرف ماسبب كل هذا الضيق رغم ذاك الشعور الذي كان يعتريني بكل تلك المتعة والنشوة التي كنت أكررها مرارًا.

مضى علىّ عام كامل وأنا على هذا الحال خمول، كسل دون أي نشاط يذكر، سوى نجاحي بالمدرسة. نجاح بدون تفوق وما أكثر

اهتماماتي التي تغيرت كل ما أفعله الغاية منه لفت انتباه من حولي لوجودي.

في البيت الكل له حياته واهتماماته. لذا كنت أحاول دائما أن أجد من يبالغ في اهتمامه بي، نقلت من المدرسة الابتدائية إلى المدرسة الاعدادية، دخلت المدرسة بروح جديدة، كنت أبالغ بالمرح، وأهتم بملابسي وأتعمد دائمًا أن تكون ملابسي قصيرة، لما وجدته من عيون تلاحقني حين أفعل ذلك، أهتم بالنشاطات المدرسية من تمثيل وغناء ولفت انتباه المدرسات إلي تقصيري الملحوظ في دروسي رغم أنهم يحبون كل ما أقوم به من نشاطات، أرسلوا بطلب والدتي للمدرسة، حضرت والدتي للمدرسة ودخلت الإدارة، كنت أقف خلف النافذة أنتظر بخوف لما سوف أناله من عقاب بعد هذا اللقاء، كنت أسمع ضحكاتهم وتبين لي بعدها أنهم كانوا معجبين بوالدتي وثقافتها ولباقتها في الحديث وأن مدرسة العلوم كانت صديقة أختي هزار وانتهت الزيارة بود وإعجاب من الإدارة والمدرسات بوالدتي. لم يتغير أي شيء بعد زيارة والدتي، بالعكس زادت ثقتي بنفسي وبالغت في إبراز مواهبي فى الدروس، أقوم بتمثيل مشاهد فكاهية تستمتع بها المدرسات أكثر من الطالبات، وكنت أرى ذلك الرجل، حارس المدرسة يلاحقني بنظراته كيفما تحركت، ينتظرني حين قدومي على باب المدرسة بابتسامته العريضة وعيناه العسليتان،

بتلك اللمعة الغريبة لم يكن كبيرًا بالعمر، وليس شابا صغيرًا، له شاربان صغيران، فمه صغير ووجه أبيض اللون يميل للاحمرارحين يضحك، كنت أنظر إليه دون أن يراني كي أتأكد أنه يتابعني وحينها أبالغ باللعب والضحك المصطنع، لا أعلم لما كنت أفعل ذلك، في إحدى الأيام بعد خروجنا من المدرسة حين انتهاء اليوم الدراسى نادتنى مديرة المدرسة، ذهبت إليها أبتسم.

قالت:حياة نسيت دفتر التحضير بدرج المكتب أحضريه لي بسرعة نظرت حولي متباهية أمام رفيقاتي، كانت الطالبة التي يطلب منها شيء من قبل المدرسات أو الإدارة نعتبرها شهادة أنها محبوبة ومميزة لديهم. صعدت الدرج الخشبي المؤدي إلى غرفة الإدارة، كان ذلك الرجل يقف تحت الدرج ينظر إلي وأنا أركض على الدرج بخفة، وثوبي يرتفع مع كل درجة أصعد إليها، وصلت الغرفة أخذت الدفتر وأنا أغلق درج المكتب وجدت دفترًا كتب عليه اسم مدرسة العلوم فتحته وقرأت الصفحة الأولى تقرير اختبار، وبعده كتبت أسئلة، أخرجت ورقة وقلم ودونتها، وأنا أتلفت حولي وأعدت الدفتر وخرجت مسرعةً وأنا أغلق حقيبتي، ومع سرعتي اصطدمت بحارس المدرسة، ضحكت وأردت أن أكمل سيري لكنه شدني إليه بقوة، نظرت إليه بخوف، لم يعط نظرتي أي اهتمام، حاولت إبعاده عني، ولكنه شدني بقوة أكبر، وشفتاه ترتجفان

وبريق عينيه كان مخيفًا واقترب فمه من فمي...وشعرت به يعضني من شفتي، صرخت ماكان منه إلا أن تركني، نزلت الدرج مسرعة وأفقت على صوت المديرة: لماذا تأخرت، ولماذا تصرخين، لا أعلم وقتها ما الذي جعلني أكذب عليها..

قلت لها:

- رأيت فأرا يقترب خفت منه، وأعطيتها الدفتر ومشيت دون أن ألتفت وصوت ضحكاتها هي والمدرسات في أذني، وصلت البيت لم ينتبه أحد لحالة الذعر التي كنت فيها، والعرق الذي يتصبب من وجهي دخلت إلى غرفتي بدلت ملابسي وقمت بأعمال المنزل المعتادة التي كانت تنتظرني في كل يوم، وتناولت فطوري مع «لمى وهزار»

«هزار» تكبرني بسبع سنين جميلة جدا، مخطوبة وحياتها بين خصام ووئام مع خطيبها، وهي مقربة من والدتي ربما لأنها الكبيرة يتكلمان معا كثيرا وحين ندخل إليهما تلوذان بالصمت.

لمى تكبرني بسنتين، عادية بسيطة ليست بذلك الجمال ولكنها مرحة، مطيعة، محبوبة من الجميع ربما لأنها لا تتمرد على شيء يطلب منها، مقربة لوالدي كثيرا، كانت بدينة نوعا ما بالنسبة لعمرها، تبذل جهد كبيرا في دراستها حتى تنال رضا والدنا، لهذا لم ينتبه أحد

لما أنا فيه من توتر فالجميع لهم مايشغلهم، بدلت ملابسي وقمت بأعمال المنزل التي اعتدت عليها حين عودتي من المدرسة تناولت فطوري، دخلت غرفتي استلقيت على السرير كي أنام قليلا، كانت هناك فوضى في أفكاري، جافاني النوم، نهضت فجأه أخرجت ورقة الأسئلة من حقيبتي وقرأت الأجوبة.

في اليوم الثاني ذهبت للمدرسة كأن شيئًا لم يكن، لم أر ذلك الرجل حين وصلت كما كان يفعل دائما دخلنا الصفوف، بعد دقائق أعلنت المدرسة اختبار مفاجئ وزعت الأوراق وأعطتنا الأسئلة بعض الطالبات اعترضت «ليس لنا علم» فوجدت نفسي أطالب بهذا التسميع، وفعلًا أقرت المدرسة الاختبار، وكانت هي ذاتها الأسئلة التي أخذتها وطبعًا أنا صاحبة أعلى علامة بالصف، وهكذا تذوقت طعم النجاح بدون تعب.

وانتهى العام الدراسي بدون أحداث جديدة، وذاك الرجل بعد تلك الحادثة كان يتهرب من الأماكن التي أتواجد فيها، انتهت تلك الحادثة دون أن يعلم بها أحد في البيت أو المدرسة، حتى أنا نسيتها تماما وطبعا كانت نتائج الاختبارات نجاح دون تفوق.

بدأ الملل يتسلل إلى داخلي فلم يعد عندي مغامرات جديدة، لكن حدث ما لم أكن أتوقعه قرار والدتي بأن نمضي العطلة الصيفية

في أحد المصايف، وكما هو المعتاد أبي يؤمن لنا كلّ شيء ويبقى في عمله.

ذهبنا ووالدتي باصطحاب صديقتها الحميمة مع ابنتها الوحيدة وهي فى عمر أختي لمى، كانت تتقرب إلي أكثر من أختي لمى، وكان يروق لي هذا الاهتمام رغم أنها فتاة بليدة بطبعها كثيرة الشرود قليلة الكلام.أحببت تفوقي عليها جمالًا وذكاء...لابل كان دهاء راق لي أن أكون القيادية رغم أنها تكبرني سنًا...يتردد لذهني ويحيرني أن تمر الكلمات أمام مسامعي مبهمة..كما حدث لي بعد سماع صوت والدتها وهي تقول لوالدتي:

بعصبية وانفعال «هذا ما حدث لها منذ شهرين» لم أفهم ما تقصد بكلامها، ولكن أحسست أن شيئًا مرعبًا قد حدث، لم أفكر كثيرا بما سمعت، استسلمت للنوم، وفي اليوم الثاني أخبرت لمى بما سمعت وسألتها ترى ما هو الذي حدث ليجعل أم صفية تقول لوالدتك بهذا الاستياء عن ابنتها، ضحكت لمى وقالت:

لقد كبرت ابنتها ويبدو هذا مزعجًا لكل الأمهات، لا تهتمي هذا الموضوع لا يعنيك، على الأقل الآن.

تجاهلت كل ما حدث وهربت بكل ما يحمله ذاك الصندوق الأسود في رأسي، وكعادتي لا أعود للبيت قبل الغروب، فغياب

والدي ساعد على تلك الحرية، وجوده كان سلاسل تقيد من حركتي، أختي هزار كانت مع خطيبها كل الوقت، لايفارقها إلا عند النوم، ولمى تعمل مع والدتي بالمنزل.

كنت أفكر فى والدى في بعض الأحيان وأتساءل لماذا يقدم لوالدتي كل ما تطلب، ولا يتدخل بأي شيء من أمورها، ولايستطيع أن يرفض لها طلبًا، ولكني لم أكن أقف عند أي موضوع أشعر أنه قد يكدر صفو اللحظة، حتى لو فكرت بالسؤال بيني وبين نفسي لم أجد تفسيرًا لما يحدث، كما أني لا أمتلك الجرأة لطرح سؤال كهذا.انتهت تلك الأيام المخضرة بكل ما فيها من مرح ومشاكسات صبيانية وعادت الأمور إلى ما كانت عليه بالسابق، البيت، المدرسة، كل الروتين الذي أكرهه أذهب وأعود دون جديد.

obeikandl.com